﴿المحاضرة - 10 - العاشرة﴾

الأدب الجزائري في عهد الدولة الحفصية

عناصر الدرس

1- تاريخ الدولة الحفصية
2- الحفصيون في الجزائر
3- المراكز الثقافية في الدولة الحفصية
4- الحياة الأدبية في الدولة الحفصية
5- أعلام أدبية جزائرية في ظل الدولة الحفصية، ومختارات من أدبهم
6- الأدب الجزائري خلال العهد الحفصي خصائصه، تطوره، وأثره

1- تاريخ الدولة الحفصية:

الدولة الحفصية (626 - 981هـ ، 1229- 1573م). الحفصيون فرع من الدولة الموحدية التي دخلت إفريقية تحت سلطانها سنة 555هـ، 1160م، على يد عبد المؤمن بن علي. وأول من تولى إمارة إفريقية من الحفصيين الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص (603- 618هـ) الذي نصبه الخليفة الموحدي الناصر واليًا على تونس سنة 603هـ، 1207م. وأصبحت لعقبه من بعده، ومن أشهرهم أبو زكرياء يحيى (626، 647هـ). تولى الإمارة وأَمْرُ الموحدين في تراجع، فأعلن استقلاله وجعل الخطبة لنفسه سنة 626هـ، 1229م. قضى على الحركات المناوئة، واستولى على الجزائر، وبايعته تلمسان وسجلماسة وسبتة ومكناسة. وخطب له بنو مرين في أول أمرهم بعد أن استولوا على مراكش، وأتته الوفود من شرقي الأندلس مستنجدة، وخلفه المستنصر (647-675هـ)، فذاع صيته وعظم شأنه، حتى أرسل له أمير مكة المكرمة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة سنة 657هـ، 1259م، إثر سقوط الدولة العباسية ببغداد.

وقد عظم شأن الدولة الحفصية في عهدي السلطانين أبي زكريا والمستنصر، وأصبحت تونس من أهم مراكز الثقافة العربية، فاشتهر بها علماء أجلاء منهم الرياضي القلصادي، والفلكي ابن القنفذ، والطبيب الصقلي، والفقيه ابن عرفة ،والجغرافي التيجاني، والمؤرخان الزركشي وابن خلدون. كما ارتبطت معظم الدول الأوروبية معها بمعاهدات تجارية وقنصليات . بيد أن عوامل الضعف والتفكك بدأت تعمل في تلك الدولة بعدهما، فانقسمت الدولة إلى إمارتين: واحدة بتونس وأخرى ببجاية، وتعرضت البلاد إلى الغزو الخارجي. ثم مالبثت الدولة الحفصية أن انتعشت في عهود السلاطين أبي العباس أحمد (772-796هـ) وأبي فارس عزوز (796-837هـ) وأبي عمر عثمان (839-893هـ)، فمد أبو العباس نفوذه على كامل بلاد المغرب، وأخضع أبو فارس تلك المناطق للسلطة الحفصية المباشرة بما فيها الأندلس، وتمكن أبو عمر عثمان من المحافظة على تلك الوحدة. كما أنشأ أبو العباس أول قوة للجهاد البحري بإفريقية، مالبثت أن تدعمت في عهدي خلفيْه، فجلب هذا النشاط للدولة عائدات كبيرة، لكنه تسبب في ردود فعل العالم النصراني، التي كانت آثارها شديدة لما عادت الدولة الحفصية إلى الضعف بعد وفاة السلطان أبي عمر عثمان. فقد تمرد عرفة الشابي وأسس إمارة منفصلة بالقيروان، واحتل الأسبان بجاية سنة 915هـ، 1510م ثم طرابلس.

في هذه الظروف اتصل الأخوان عروج وخير الدين بالسلطان أبي عبد الله محمد (899-932هـ)، واتخذا جزيرة جربة قاعدة لتحركاتهما ضد الأسبان في البحر المتوسط.

ولما استولى خير الدين على الجزائر عاد إلى تونس، فاستولى عليها سنة 935هـ، 1529م، وخطب فيها لسليمان القانوني. ففر السلطان الحسن الحفصي (932-942هـ)، مستنجدًا بملك الأسبان فثار السكان بمعية الأمير أحمد بن الحسن، لكن الأسبان استولوا على المهدية والمنستير وجربة وطرابلس في عهد السلطان أحمد المذكور (942-980هـ)، فاستردها منهم القائد درغوث باشا سنة 958هـ، 1551م، ودخل القيروان ونصب عليها حيدر باشا واليًا عثمانيًا. كما هجم والي الجزائر علي باشا على تونس، وأخذ البيعة بها للسلطان سليم الثاني، فاستنجد أحمد ـ كأبيه ـ بالأسبان، واقتحموا البلاد ثانية سنة 980هـ، 1572م. فحكم أخوه محمد (980- 981هـ) تحت الحماية الأسبانية، يقاسمه أمر الدولة حاكم من قبل ملك أسبانيا. إلى أن أنقذ البلاد الفتحُ العثماني سنة 981هـ، 1573بقيادة الوزير سنان باشا..[1]

2- الحفصيون في الجزائر:

الجزائر الحفصية هي عبارة اليوم عن مقاطعتي الجزائر وقسنطينة مع جزء من مقاطعة وهران، وهي تنقسم إلى أربع ولايات: ولاية بونة وولاية بجاية وولاية قسنطينة وولاية الزاب وقاعدته مدينة بسكرة وتارة مقرة من بلاد الحضنة. ويمتد خط الجنوب إلى ما وراء بلاد ورقلة[2].

3- المراكز الثقافية في العهد الحفصي[3]: لم تكن تونس تعدم مراكز ثقافية، فقد ورثت ذلك من دويلات شتى وهي الدولة الاغلبية والفاطمية والصنهاجية والموحدية. كل تلك الدويلات تركوا مساجد ومكتبات وكتاتيب وكتبا.. ولما ظهرت الدولة الحفصية - سليلة الدولة الموحدية - ودانت لها كل المنطقة وبويع بعض أمرائها بالخلافة، أدرك ملوكها قيمة العلم والمعرفة، فدعموا قوة دولتهم بزيادة خزائن الكتب وتنافس الملوك والأمراء في ذلك واهتم عدد منهم اهتماماً بالغاً بجمع أرصدة المكتبات الخاصة الزاخرة بالرقوق والمخطوطات.

وأوّل من عرف بذلك السلطان أبو زكرياء الأكبر 647 هـ/ 1249 م ولا نعلم خبر مكتبته إلا ما ذكره أبو محمد عبد الله التيجاني في "رحلته" أثناء ترجمته للحسن معمّر الهواري الطرابلسي الذي كان تولّى في مدة أبي زكرياء خطة العلامة الكبرى والنظر في خزائن الكتب. وكان للتنافس الذي ساد بين الولة الحفصية ونظرتيها المرينية والزيانية أثره البالغ في تنشيط الحياة الأدبية، والمنافسة على اجتذاب العلماء والأدباء..

4- الحياة الأدبية في الدولة الحفصية:

بقي الأدب الجزائري على العهد الحفصي الأول كما كان في عهد الموحدين مزدهرا يجري على ما كان عليه من الاتجاهات، لكن وحدة الإمارة لم تلبث أن تفككت، فحكم بعض أمرائها بتونس، واستبدّ بعضهم ببجاية، والآخرون بقسنطينة. والكل يريد أن يفاخر الآخر في أبهة السلطان، فيقرب الأدباء، ويحسن إليهم، فيأخذ الشعراء في مدحهم، والإشادة

---

[1] - ينظر: قرص الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، مادة: الحفصية.

[2]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2، 1965م، ج2، ص11.

[3] - ينظر: محمد الصادق عبد اللطيف، تونس في العهد الحفصي مركز اشعاع ثقافي، موقع منتديات تونيزيا سكول، http://www.tunisia-school.com.

بفضلهم، ورغم ذلك لم يزدهر الشعر في هذه الآونة ازدهاره في ريعان شباب الدولة[1].. تناول الشعر في العهد الحفصي أغراضا كثيرة وهي: الحنين إلى الوطن، والإخوانيات، والمدح، و الوصف، و الزهد، والرثاء، والغزل، والمولديات، والشعر الديني عامة. وفي جانب النثر

5- أعلام أدبية جزائرية في ظل الدولة الحفصية، ومختارات من أدبهم: ظهر في الساحة الحفصية جم غفير من الأدباء الجزائريين، اشتهر منهم ابن مرزوق الخطيب وابن الخلوف القسنطيني ويحيى بن زكرياء السطيفي، وغيرهم كثير في كتاب عنوان الدراية للغبريني.

- **ابن مرزو الخطيب**[2]: هو أحد أخطر ثلاثة علماء في هذه الفترة، أدبا وعلما ودينا وسياسة. وهم ابن مرزوق الخطيب ولسان الدين ابن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون.

قال ابن مرزوق: عند وداع السلطان الحفصي أحمد أبو العباس[3] عام 773 هـ متوجها نحو الديار المصرية[4]:

أُوَدِّعُكُمْ وَأُثْنِي ثُمَّ أُثْنِي ... عَلَى مَلِكٍ تَطَاوَلَ بِالْجَمِيلِ
وَأَسْأَلُ رَغْبَةً مِنْكُمْ لِرَبٍّ ... بِتَيْسِيرِ الْمَقَاصِدِ وَالسَّبِيلِ
سَلاَمُ اللهِ يَشْمَلُنَا جَمِيعًا ... فَقَدْ عَزَمَ الْغَرِيبُ عَلَى الرَّحِيلِ

كان ابن مرزوق الخطيب قد أقام في تونس مدة بعدما ساءت علاقته بالمرينيين؛ فلم يطب له المقام في تونس أيضا، لأنه حل في وقت فتن واضطرابات، فعزم على الرحيل إلى الديار المصرية، واعتزال السياسة وأتعابها. ولا شك أن إقامته كانت في البلاط الملكي الحفصي لمكانة أسرة المرازقة، ولشخصيته العلمية والسياسية الخطيرة. وفي هذا الوداع الخاص بالسلطان أبي العباس إشارة واضحة على ذلك.

وأثنى ابن مرزوق ظاهرا على السلطان أبي العباس لفضله وجميله عليه؛ حيث كان "شجاعا دينا عاقلا صفوحا (..) فهو الذي شيد رسوم بني حفص بعد اندراسها؛ وأقام منار

---

[1] - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص188-189.

[2] - **ابن مرزو الخطيب**: "محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق، العجيسي التلمساني، شمس الدين أبو عبد الله الشهير بالخطيب والجد والرئيس: فقيه، من أكابر علماء المالكية في عصره، له مشاركة في فنون الأدب والدين والعلم، ولد بتلمسان. ورحل مع والده الى الحجاز سنة 718هـ فحج وجاور، ثم عاد منفردا فدخل الشام ومصر فأخذ عن علمائها. رجع الى تلمسان سنة 733هـ فولاه السلطان أبو الحسن خطابة مسجد العباد وقربه اليه وجعله خطيبا حيث يصلي في مساجد المغرب، وسفر عنه الى ملوك الأندلس وإفريقية، كلفه أبو سعيد عثمان بن جرار في مهمة سجن من أجلها أياما ثم أفرج عنه فرحل الى الاندلس وولي الخطابة في جامع الحمراء بغرناطة. وفي سنة 754هـ استدعاه السلطان أبو عنان الى تلمسان وقربه إليه وأوفده في مهمة الى تونس فلم يوفق، ووشي به/ الى السلطان فسجنه ثم أطلقه قبل موته - أي موت السلطان-. وفي أواخر سنة 762هـ سجنه الوزير عمر بن عبد الله ثم أفرج عنه، فرحل الى تونس حيث ولي الخطابة في الجامع الموحدي. وفي سنة 770هـ دخل القاهرة فاتصل بالسلطان الأشرف فكرمه وولاه الوظائف العلمية فاستمر قائما بها الى أن وافاه الأجل في شهر ربيع الأول ودفن في مقبرة القرافة الصغرى..".
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر- من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر-، ص289- 290.

[3]- أَحمد الْحَفْصي (00 - 796 هـ = 00 - 1394م) أحمد بن محمد بن أبي بكر، أبو العباس، الحفصي: من كبراء ملوك الحفصيين بتونس، يلقب أبا السباع. كان أميرا على قسنطينة، وثار على السلطان خالد بن إبراهيم صاحب تونس فخلعه وتولى السلطنة سنة 772 هـ وقمع الفتن، وكانت ملء السهل والجبل، واستعاد البلاد من المتغلبين، فدخلت في طاعته بلاد الجريد وقابس وجربة وطرابلس والزاب. وقويت أساطيله. فأغزاها الشواطئ المجاورة، واستمر إلى أن توفي بتونس. وكان عادلا حازما شجاعا، من مفاخر الحفصيين". - الزركلي خير الدين، الأعلام، ج1، ص225.

[4]- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص418.

بني حفص في الإمارة، ودعم أساسها"[1]. ولكن شاهد الحال يدل على أنَّ ابن مرزوق لم يكن مرتاحا من طرف أهل تونس، الذين نعتوه من قبل بالغريب وبالكلب.

وذلك حين كان ابن مرزوق سفيرا لبني مرين، ووفد على السلطان الحفصي ببعض الرسائل السلطانية. وقد فَصَّل لنا المقري في نفحه أحداث تلك القصة؛ فقال: "حدثني عمي الإمام سيدي سعيد المقري - رحمه الله تعالى - أن العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية، طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان، فأجابهم إلى ذلك، وعينوا له محل البدء، فطالع فيه، فلما حضروا قرأ القار غير ذلك، وهو قوله - ﷻ- ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ (سورة الأعراف، الآية176) وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به، فوجم هنيهة، ثم تفجر بينابيع العلم، إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة، وساقها أحسن مساق، وأنشد عليها الشواهد، وجلب الحكايات، حتى عَدَّ من ذلك جملة، ثم قال في آخرها: فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله، غير أنَّ فيه واحدةً ذميمةً، وهي إنكاره الضيف، ثم افترق المجلس. وأخبرني أنه أطال في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر"[2].

- **أبو زكرياء يحيى بن زكرياء بن محجوبة القرشي السطيفي**[3]: ... 677هـ =... 1278م

ومنهم شيخنا، الشيخ الفقيه، الولي الصالح المبارك، أبو زكرياء يحيى بن زكرياء ابن محجوبة القرشي السطيفي باطنة شيخ شيوخنا، الشيخ أبي الحسن الحرالي رضي الله عنه. كان من المتعبدين لزهاد الأولياء، رحل إلى المشرق ولقي مشائخ، واقتصر على أبي الحسن الحرالي، واستفاد منه علم الظاهر والباطن، وحصل من هديه الجلي والكامن، لقيه بالديار المصرية وصحبه هناك مدة طويلة، وهناك ظهرت له حقائق، وانقطعت عنه عوارض العلائق، وكان للشيخ رضي الله عنه هنالك، أصحاب قد أدركوا المدراك، وجاوزوا سبيل السالك، وكانوا يريدون ترقي الشيخ أبي زكرياء إلى بعض مداركهم، والانتظام في سلكهم وما زالوا إلى أن ظهر له بعض التحقيق، واعتمد جادة الطريق، فأنهوا ذلك إلى الشيخ أبي الحسن رحمه الله، فأنشده في معنى ما ظهر له، وبين له الحال فيما لم يظهر له، هذه الأبيات.

جلـــــت لـــــك ليلـــــى مـــــن مثنـــــى نقابهـــــا
طريقـــــا وأبـــــدت لمعـــــة مـــــن جمالهـــــا
فطبـــــت بهـــــا عيشـــــا وتهـــــت لـــــذاذة
وفيـــــأك الالمـــــاع بـــــرد ظلالهـــــا
فكيـــــف تـــــرى ليلـــــى إذا هـــــي أســـــفرت
ضـــــحاء وأبـــــدت وارفـــــا مـــــن دلالهـــــا
وكيـــــف بهـــــا أن لـــــم يغـــــب عنـــــا شخصـــــها
ولـــــم تخـــــل وقتـــــا مـــــن منـــــال وصـــــالها
وكيـــــف يكـــــون الأمـــــر أن كنتهـــــا
وكانتـــــك تحقيقـــــا فحلـــــت لحالهـــــا

---

[1]- محمد بن أبي القاسم ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ط1، 1286هـ، صص132- 136.

[2]- أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص433.

[3] - الغِبْرِيني أحمد بن أحمد، عنوان الدّراية، ص103-104.

وكان رحمه الله ممن تخلى عن الدنيا وتركها، وكان صاحب كرامات، وكان مستجاب الدعوة. سمعت عن الشيخ أبي الحسن الحرالي رضي الله عنه، إنه عين أصحابه بعده، فقيل إنه قال: أصحابي ثمانية وعشرون، منهم أربعة تستجاب دعوتهم، وعين من الأربعة الشيخ أبا زكرياء رضي الله عنه، وربما زاد الناقلون في العدد أو نقصوا منه، وروح المسألة أن الشيخ أبا زكرياء أحد الأربعة الذين تستجاب دعوتهم وسمعت أن منهم السيخ أبا محمد ابن عبد المسير الاطرابلسي - رحمه الله -. وكان في علم التصوف مقدما، وكانت له أخلاق حسنة، ومن فضائل وزهده، إنه عرض عليه في مدة الأمير أبي يحيى برد الله ضريحه، أن يجعل له مرتب من أعشار الديوان في كل شهر فامتنع من ذلك وقال: أن اسمي في ديوان الوجود المطلق فلا أجعله في لديوان المقيد، لأن الإطلاق أوسع من التقييد وهو في ديوان الحق فلا اجعله في ديوان الخلق.

ورأيت له تأليفا حسنا في "شرح أسماء الله الحسنى" وله في التصوف "تقاييد" كثيرة، وله نظم حسن وقطع مستحسنة كلها في المعاني الصوفية.

- **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأريسي المعروف بالجزائري[1]: -** أواسط القرن السابع الهجري - ومنهم، الشيخ الفقيه، الكاتب الأديب البارع، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد الاريسي المعروف بالجزائري: هو حفيد الفقيه الجليل أبي عبد الله الأريسي المتقدم ذكره في هذا الكتاب من أدباء الكتاب وهو من نظراء شيخنا أبي عبد الله التميمي في علم النظم والقريض ومن أصحابه، كان حسن النظم والنثر، مليح الكتابة حسن الوراقة في البطاقة، وكان سهل الشعر، وكان كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف، ولأجل ذلك حسن نظمه. وكان مليح التواشيح، أن طال في شعره أعرب، وان اقتصر واقتصد أعجب. وكان شيخ كتبه الديوان ببجاية. وله شعر كثير في كل فن من فنون الشعر، ومن نظمه رحمه الله:

يـــا مـــن علـــى جـــوده المعهـــود أتكـــل
ويـــا مـــلاذي إذا ضـــاقت بـــي الحيـــل
غرقـــت فـــي بحـــر آثـ ـامي فخـ ـذ بيـــدي
وامـــنن بعفـــو فـــاني خـــائف وجـــل

وله أيضا:-

أدرهـــا فقـــد هـــب نســـيمة داريـــن
ونـــم بســـر الـــروض نشـــر الريـــاحين
وقـــام خطيـــب الـــورق يـ ـدعو هزيلـ ـه
وغنـــى فـــأغنى عـــن ضـــروب التلاحـــين
وذكـــر أيـــام الصـــبابة والصـــبا
ولـــذة عـــيش كـــان لـــي غيـــر ممنـــون
فثـــار كمـــين الوجـــد مـــن مســـتقره
وبحـــت بســـر بـــين جنبـــي مخـــزون
قيـــا ســـاكني نجـــد أأطـــرق حـــيكم
وارجـــع مغلوبـــا بصـــفقة مغبـــون

[1] - الغِبْرِيني أحمد بن أحمد، عنوان الدّراية، ص337-340.

ويـــــا ســـــاكني الجرعـــــاء أن كـــــان عنـــــدكم
نصـــــيب مـــــن الصـــــبر الجميـــــل فراســـــوني
تركـــــت فـــــؤادي عنـــــد خيمـــــة زينـــــب
ومـــــا ســـــحر عينيهـــــا علـــــي بمـــــأمون
أغـــــارت عليـــــه حـــــين لـــــم يلـــــف ناصـــــرا
وأغرتـــــه بـــــي حتـــــى تعلـــــم يجفـــــوني
فكـــــم خلـــــت أن الحـــــب لا يســـــتفزني
وأن التصـــــابي خلقـــــة لا تـــــواتيني
وكـــــم صـــــنت عـــــن نظـــــم القـــــريض وصـــــنته
إلـــــى أن رأت عينـــــي، علـــــي بـــــن ياســـــين

وله أيضا:

لعلـــــك بعـــــد الهجـــــر تســـــمح يـــــا بـــــدر
بوصـــــل فقـــــد أودى بمهجتـــــي الهجـــــر
أبيـــــت كمـــــا ترضـــــى الكآبـ ـة والأسـ ـى
وأضـــــحى كمـــــا تهـــــوى الصـــــبابة والفكـــــر
إذا قنطـــــت نفســـــي ينـــــادي بهـــــا الرجـــــا
رويـــــدك كـــــم عســـــر علـــــى إثـــــره يســـــر
وإن ذكـــــرت يـــــوم الفـــــراق تقطعـــــت
علائـــــق آمـــــال يرحمهـــــا الـــــذكر
ولا أنـــــس يومـــــا للســـــرور وبيننـــــا
عتـــــاب كبـــــرد المـــــاء لكنـــــه الجمـــــر
ولا كـــــأس إلا مـــــا ســـــقاني بـــــه اللمـــــى
ولا نقـــــل إلا مـــــا حبـــــاني بـــــه الصـــــدر
تقـــــول وقـــــد مالـــــت بمعطفهـــــا الطـــــلا
وخفـــــت لأن تخطـــــو فأثقلهـــــا الســـــكر
وقـــــد جاذبـــــت ريـــــح الصـــــبا فضـــــل مرطهـــــا
فـــــأومض لـــــي بـــــرق تضـــــمنه الثغـــــر
أمـــــن يومنـــــا بـــــالجزع أنـــــت مولـــــه
تفـــــيض مـــــن الامـــــاق أدمعـــــك الحمـــــر
دع العتـــــب فـــــالعتبى أحـــــق بيومنـــــا
وعـــــد عـــــن الشـــــكوى فقـــــد قضـــــي الأمـــــر
علمنـــــا وإن لـــــم يعلـ ـم الحـــــب إذ تـــــه
ذلـــــول الهـــــوى صـــــعب وحلـــــو النـــــوى مـــــر
وليـــــل اللقـــــاء صـــــبح وصـــــبح النـــــوى دجـــــى
وشـــــهر الرضـــــى يـــــوم ويـــــوم النـــــوى شـــــهر
فـــــو الله مـــــا ادري لطيـــــب حـــــديثها
اضـــــمن ســـــحرا لفظهـــــا أم هـــــو الســـــحر

فيـــــا حبـــــذا يـــــوم فقـــــدت بـــــه الحجـــــى
ووودعنـــــــي إذ ودعـــــــت شـــــمه الصـــــبر
خليلـــــــي قـــــولا أن بـــــدا لكمـــــا الحمـــــى
أهيـــــل الحمـــــى مشـــــغوفكم مســـــه الضـــــر
علـــــــى م تناســـــيتم حـــــديث عهـــــودكم
ولـــــيس لـــــه ذنـــــب ولـــــيس لـــــه عـــــذر
أهيـــــل الحمـــــى منـــــوا بطيـــــف خيـــــالكم
عســـــى نلتقـــــي أو يلتقـــــي النـــــوم والشـــــفر
بمـــــا بيننـــــا لا تقبلـــــوا مـــــن وشـــــاتنا
فمـــــا ضـــــاع لـــــي ود ومـــــا ذاع لـــــي ســـــر
فكـــــم رمـــــت أن أقضـــــي فريضـــــة حقكـــــم
فلمـــــا أردت الســـــعي أثقلنـــــي الـــــوزر

ومن نظمه رحمه الله:

أهـــل الحمـــى لكـــم عـــن قصـــتي خبـــر ... وان ليلـــى بليلـــي كلـــه ســـهر
وفـــي ضـــلوعي نيـــران يضـــمرها ... دمـــع علـــى صـــفحات الخـــد ينهمـــر
لمـــا رأيـــت بـــدور الحـــي ســـافرة ... عـــن النقـــاب بـــدا لـــي إنـــه الســـفر
ولا عوامـــــل إلا مـــــن قـــــدودهم ... ولا صـــوارم إلا مـــا انتضـــى الحـــور
ســـألتك الله يـــا حـــادي المطـــي بهـــم ... رفقـــا علـــي لعـــل الصـــدع ينجبـــر
كـــرر علـــي فلـــي قلـــب يميـــل إلـــى ... حـــديث مـــن قتلـــوا مـــن ومـــن أســـروا
وأنـــت يـــا ســـعد أن غنـــت ظبـــاؤهم ... قفـــف تعـــاين فـــؤادي كيـــف ينفطـــر
ورب ليـــل بليلـــي بـــت أســـهره ... وحســـدي نـــوم والليـــل معتكـــر
تبـدو كشـمس الضـحى تعلـو قضـيب نقـا ... وتنثنـي مثـل غصـن فوقـه قمـر
تقـــول والحســـن يطغيهـــا فتظلمنـــي ... ولا مـــوازر إلا صـــارم ذكـــر
دع الحســـام وضـــع حمـــل الســـلاح فمـــا ... فـــي كـــل وقـــت يفيـــد الحـــزم والحـــذر
مـــا للمهنـــد حكـــم فـــي محلتنـــا ... بـــل للمهنـــد فيهـــا الحكـــم والنظـــر
وللظبـــا فتكـــات بـــين أرحلنـــا ... ترنـــو وتعنـــو الظبـــي المضـــروبة البتـــر
فـــإن طمعـــت بلـــين فـــي لواحظنـــا ... فـــنحن أهـــل قلـــوب مثلهـــا الحجـــر
وإن حلـــت لـــك ألفـــاظ نرددهـــا ... مـــا بيننـــا فهنـــاك الصـــاب والصـــبر
إنـــا لنجـــرح مـــن ألحـــاظ مبصـــرنا ... لكننـــا مـــن ســـواد القلـــب ننتصـــر
فـــارحم شـــببك وارحـــل دون مغلبـــة ... واقبـــل مـــن الحســـن مـــا أعطاكـــه النظـــر
فعنـــدها أيقنـــت نفســـي لغيبتهـــا ... وأقســـمت مهجتـــي أن لســـت أصـــطبر
وقمـــت ألقـــط مـــن ألفاظهـــا دررا ... وانظـــم الســـحر حتـــى أقبـــل الســـحر

- **ابن الخلوف القسنطيني**[1]: (829 - 899 هـ = 1425 - 1494 م)؛ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، شهاب الدين، الخلوف: شاعر تونسي. أصله من فاس، ومولده بقسنطينة، وشهرته ووفاته بتونس. اتصل بالسلطان عثمان الحفصي، وأكثر من مدحه. له

[1] - الزركلي خير الدين، الأعلام، ج1، ص231.

(ديوان شعر - ط) و (مواهب البديع) و (جامع الأقوال في صيغ الأفعال) أرجوزة، و (عمدة الفارض) أرجوزة في الفرائض، و(تحرير الميزان) في العروض، و (نظم المغني) في النحو، و (نظم التلخيص) في المعاني والبيان. زار القاهرة أكثر من مرة ".

قال ابن الخلوف القسنطيني[1]: من مدحية نبوية عنوانها؛ قرع باب الفرج بمدح طه الرفع الدرج:

يـــا نســـيما مـــن أرض طيبـــة وافـــى ... عطـــر الجـــو حيـــث صـــار بلـــيلا
مـــــلأ الأرض زررنبـــــا وبهـــــارا ... وخزامـــــا وأذخـــــرا وجلـــــيلا
قـــد فرشـــنا لـــك العيـــون اتضـــاعا ... ولثمنـــا لـــك الثـــرى تبجـــيلا
علـــل الصـــب بـــالقبول فـــإني ... يـــا نســـيم الص،بـــا أراك قبـــولا
وأعنـــي علـــى تعلـــل صـــبري ... ربمـــا ســـاعد العليـــل العلـــيلا
وأعـــد لـــي ذكـــر الحبيـــب لأســـقي ... بحـــديث الحبيـــب كأســـا شـــمولا
وإذا عـــــدت للمنـــــازل فاشـــــرح ... قصـــة الصـــب واحـــذر التعـــويلا
واقـــرأ لـــه منـــي الســـلام وقبـــل ... عنـــي النعـــل والثـــرى تقبـــيلا
واجـــرِ بـــالله يـــا نســـيم بلطـــف ... بعـــض ذكـــري عنـــد الحبيـــب قلـــيلا
واحـــك ذلـــي لعـــزه وتعطـــف ... فعســـى بـــرحم العزيـــز الـــذليلا
وتلطـــف عســـى يمـــن بوعـــد ... إنـــه كـــان وعـــده مفعـــولا
وأمـــل شـــجوي علـــى الحمـــام وطـــارح ... بلبـــل الـــدوح واتخـــذه وســـيلا

قال ابن الخلوف القسنطيني: وكانت له علاقات طيبة بالسلطان الحفصي أبي عمرو عثمان[2].

لم يكن ابن الخلوف مدَّاحَ ملوك ولم يرد ذلك؛ لأنه تخصص في مدحه للرسول - ﷺ - وحده، ولم يرد أن يشوهه بمدح الملوك، ولما أعوزته الحاجة لم يَفْرِطْ، وقَصَرَ مدائحَهُ على أبي عمرو عثمان ووليِّ عهده المسعود، ولم يزد عليهما. قال الشاعر طالبا النوال، شاكيا حاله إلى سلطانه[3]:

فَجُـــدْ بِالرِّضَـــا لاِبْـــنِ الْخَلُـــوفِ فَإِنَّمَـــا ... أَيَـــادِي رَجَـــاهُ نَحْـــوَ جُـــودِكَ مُـــدَّتِ/
وَلاَ تَنْسَـــنِي مِـــنْ جُـــودِكَ الطَّـــمِّ بَعْـــدَمَا ... أَمَـــرْتْ بِأَنْعَـــامِ لِعَبْـــدِكَ بَلَّـــتِ
فَأَنْـــتَ مَـــلاَذِي، وَاِعْتِمَـــادِي وَغَـــايَتِي ... وَعِـــزِّي وَسُـــلْطَانِي وَأَمْنِـــي وَمُنَيْتِـــي
وَغَـــوْثِي وَفَخْـــرِي وَاِفْتِخَـــارِي وَعُـــدَّتِي ... وَكَهْفِـــي وَمَطْلُـــوبِي وَكَنْـــزِي وَعُمْـــدَتِي

حقيقة إنما دافع المديح عند ابن الخلوف الحاجة، غير أنه في المقابل "كان يحس في قرارة ذاته، أنه بهذا الوابل من المديح لممدوحيه كان يؤدي دينا عليه، متمثلا في روح المواطنة اللاشعورية"4. وفي مدحية أخرى يظهر ابن الخلوف مهندسا للفضائل التي حلى بها السلطان؛ فعملُ العقل، والترتيب المنطقي، وحسن الاختيار، ظاهر جلي. وفي هذا دلالة

---

[1] - ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين – ديوان الإسلام – تحقيق العربي دحو، اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، دط، 2004م، ص119.

[2] - أبو عَمْرو الحَفْصي (821 - 893 هـ = 1418 - 1488م) عثمان بن محمَّد بن عزوز (عبد العزيز) بن أحمد الهَنْتَاتي الحفصي، أبو عمرو: من ملوك الدولة الحفصية بتونس.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج4، ص213.

[3]- أحمد بن عبد الرحمن ابن الخلوف القسطيني، الديوان، الدار العربية للكتاب، جمع وتحقيق هشام بوقمرة، دط، دتط، ص91- 92.

[4]- عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1986م، ص195.

على الروية في شعره، والابتعاد عن الارتجال، لأنه آمنُ لمن يتعامل مع الملوك. قال ابن الخلوف[1]:

سَـــاسَ الْخِلاَفَـــةَ بِالْمَكَـــارِمِ وَالحِجَـــى ... إِذْ لَـــمْ يَسُسْـــهَا قَبْلَـــهُ الْخُلَفَـــاءُ
تَعْلُـــو السَّـــمَاءَ ثَلاَثَـــةٌ مِـــنْ أَرْضِـــهِ ... اَلْفَضْـــلُ وَالإِفْضَـــالُ وَالنَّعْمَـــاءُ
وَثَلاثَـــةٌ تَغْشَـــاكَ أَنَّـــى زُرْتَـــهُ ... الْبِـــرُّ ، والإِرْفَـــادُ ، وَالسَّـــرَّاءُ
وَثَلاثَـــةٌ قَـــدْ جُنِّبَـــتْ أَخْلاقَـــهُ ... الْخُلْـــفُ، وَالْآثَـــامُ وَالشَّـــحْنَاءُ/
وَثَلاثَـــةٌ فِـــي الْعَـــزْمِ مِـــنْ أَفْعَالِـــهِ ... الـــنَّقْضُ وَالْإِبْـــرَامُ وَالآرَاءُ
وَالْمَجْـــدُ وَهْـــوَ اثْنَـــانِ أَحْـــرَزَ وَاحِـــدًا ... أَعْمَامُـــهُ وَالآخَـــرَ الآبَـ ـاءُ
هَـــذِي الْمَـــآثِرُ لَـــيْسَ يُنْشِـــئُ مِثْلَهَـــا ... بَـــانٍ وَلَـــمْ يَسْـــمُ بِهَـــا النُّظَـــرَاءُ
تَتَحَيَّـــرُ الشُّـــعَرَاءُ فِيهَـــا إِذْ تَعُـــمْ ... فِـــي بَحْرِهَـــا الْكُبَـــرَاءُ الْعُظَمَـــاءُ

6- الأدب الجزائري خلال العهد الحفصي خصائصه، تطوره، وأثره:

- ✓ إن كتاب عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة لمؤلفه أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني يعتبر خير شاهد على إنجازات الجزائر الحفصية وكذا الموحدية من الناحية الأدبية. وقد تضمن الكتاب تراجم لجزائريين ومغاربة وأندلسيين..
- ✓ كان الحفصيون يقلدون نظام الموحدين، ولا شك أن نظاما يستمد أصوله من النظام الموحدي لا يستغرب فيه أن يولي اهتماما عظيما إلى الثقافة.
- ✓ يلاحظ ان التعليم يومئذ كان منتشرا بالكتاتيب والمساجد التي هي معاهد الإسلام التعليمية.
- ✓ إن الأمراء والعمال في قسنطينة وعنابة وبجاية والجزائر كانوا يحبون العلم ويقربون أهله ويشجعونهم.
- ✓ زخرت المساجد بالعلماء ونبغوا في شتى العلماء.
- ✓ أحدث تمازج العلماء الأندلسيين والعرب والبربر جوا علميا مميزا.
- ✓ قال أبو علي المسيلي: "أدركت بجاية ما ينيف على تسعين مفتيا" فما ظنك بالأدباء والنحاة والمحدثين وغيرهم.
- ✓ خير ممثل للأدب الجزائري في العهد الحفصي ابن الخلوف القسنطيني، وقد اشتهر بجودة الشعر والكتابة فكان يعرف بين أدباء عصره بذي الصناعتين.

[1]- ابن الخلوف القسطيني، الديوان، ص75- 76.